

أبنائي الأحباء،

سلام ونعمة لكم.

مع بدء اليوم الأول من العام الجديد، أود أن تتذكر اليوم الأول عندما بدأت حياتك الجديدة؛ هل تتذكر مشاعرك في ذلك اليوم - ما الذي أحسست به لحظة دخولك من بوابة الدير؟ سيل الأفكار الذي كان يتدفق في ذهنك عندما تحليت بثياب التكريس وأعطيت اسماً جديداً؟ هل تتذكر مشاعر الرهبة والحب المتأجج؟ مشاعر التفاني وعدم الاستحقاق التي ملأت قلبك بسلام لا يوصف؟ الشعور الغامر بالسعادة والرغبة في الخضوع الكامل لإرادة الله؟ والرغبة غير المحدودة في التعلق به وحده؟ الاشتياق أن تحيا حياة النسك، الإستعداد لإحتمال التجارب، الجهاد بلا كلل في أن تحيا في خضوع وطاعة خادماً الأخوة/الأخوات بكل تواضع؟

يعلمنا الآباء أنه على الراهب أن يذكر نفسه، على الدوام، بالأفكار والمشاعر التي كانت تستحوذ على تفكيره عند دخوله الدير وذلك لأنه أحياناً ما نجد أنفسنا قد انحرفنا وحولنا نظرنا عن الهدف. تحول الشعور بالرهبة إلى عدم الاكتراث، المحبة إلى فتور، عدم الاستحقاق إلى الحق المكتسب، النسك إلى البحث عن راحة أجسادنا، الإحتمال إلى إدانة وعدم احتمال، الخضوع إلى عدم طاعة، الاتضاع إلى تكبر واحتقار. ونجد أنه قد تبدلت مشاعرنا، خلصة، من رغبتنا في محبة وتعزيد أخواننا/أخواتنا إلى التشاحن على توافه الأشياء. لم نعد ننكر ذواتنا من أجل المصلحة العامة، بل نُصر أن نُسمع آرائنا ونُتمم رغباتنا وعندما لا يحدث ذلك نحتج ونرد بالغضب والتذمر، لا نلوم أنفسنا إلا على القليل، إن فعلنا، ونضع كل تركيزنا على ضعفات أخواننا/أخواتنا.

تدريجياً، وربما بدون أن نشعر، تتحول تلك المشاعر إلى الكآبة وسرعان ما تضعف صلاتنا. وربما نفقد الحافز في تأدية واجباتنا ونفكر بالاستسلام عوضاً عن قبول مشيئة الله في صبر - غافلين أن مراحمة غفيرة وأن هناك قصد لكل ما يحدث لنا. وقد نجد أنفسنا غير راضيين لأن تسلسل الأحداث في حياتنا لم يسر على وفق ما كنا نبيغي أو نترجى - ونتيجة لذلك قد نجد أننا نتحاشى الأخوة/الأخوات مواظبين على حضور صلوات المجمع ليس بدافع المحبة ولكن عن اضطرار.

يقول القديس يوحنا كاسيان في هذا الصدد (في روح الكآبة): "عندما يأسر هذا الشيطان الخبيث روحك ويحوطها بالظلام كليلية، فإنه يجرنا من الصلاة بفرح، ومن المثابرة على قراءة الكتاب المقدس والانتفاع به، وأيضاً من أن نكون لطفاء وشفوقين تجاه أخوتنا فهو يغرس روح الكراهية تجاه كل الأعمال وحتى في الممارسات الرهبانية نفسها. وهو يعمل على هدم القرارات المفيدة للروح، مضعفاً ثباتها وإصرارها، ويتركها عاجزة و بلا معنى، مقيدة بأفكار اليأس. وشيطان الكآبة يشير إلى الروح بوجود الانعزال عن الآخرين بما أنهم سبب إثارتها وهو لا يدع الروح تعي أن علتها هي من الداخل وليس من الخارج. وهذه العلة تُظهر نفسها فقط عندما تهاجم الإغراءات الروح بسبب جهادنا النسكي.

قد يصيب الإنسان الضرر من الآخرين بسبب الشهوات الكامنة بداخله. ولهذا السبب عينه فإن الله، خالق الكل وطبيب أرواح البشر، والذي عنده وحده المعرفة الكاملة بجراحات الروح، لا يحضنا على اعتزال الناس؛ بل يحضنا على اقتلاع أسباب الشر من أنفسنا وأن ندرك أن صحة الروح لا تتحقق باعتزال الإنسان عن رفقائه بل بأن يحيا الحياة النسكية بصحبة أناس أتقياء. عندما نعتزل أخوتنا لسبب قد يبدو وجيه فنحن لا نمحي السبب الباعث على الكآبة بل أننا ببساطة نعص البصر عنه، بما أن العلة الكامنة بداخلنا سوف تُظهر نفسها ثانية في ظروف أخرى."

أحبائي، أود أن أشير إلى أنه عندما تجد نفسك في فترة جفاف روحي، أن تظل تصلي بصدق في أوقات التجارب "إني أريد أن تعلموا أيُّ جهادٍ لي لأجلكم" (كو ٢ : ١) وتمسك بالرجاء في الله "مبارك الرجل الذي يتكل على الرب وكان الرب مُنكلاً" (ار ١٧ : ٧). لا تنسى محبتك الأولى، وفي أوقات التجارب لا تبحث عن مصدر آخر للراحة غير الله؛ ضع طلبتك في الصلاة بانسحاق وهو يقويك في حينه. لا تقبل شعور القنوط، تذكر سيرة القديس أبراكايوس الذي حاول الشيطان أن يحبطه بقوله له أنه مازال في حياته ٥٠ عاماً فجاوبه بقوله: "لقد أحزنتني فقد كنت أعتقد أنه لدي مائة عام لأحيا فتكاسلت في جهادي وعبادتي. أما في هذه الحالة فعلياً أن أجاهد أكثر قبل أن أموت".

لا تستنفذ كل طاقتك في التركيز على خطاياك أو خطايا الغير بل بالأحرى أملاً ذهنك بأفكار الشكر وتذكر صلاح الله في حياتك. عندما تسقط، اسع في طلب رحمة الله وتشجع عندما تتذكر قول الكتاب المقدس: "لا تسمي بي يا عدوتي. إذا سقطت أقوم. إذا جلست في الظلمة فألرب نور لي" (مي ٧ : ٨).

عندما تشعر أنك بصدد مصاعب غامرة تذكر ما قيل في سفر يشوع بن سيراخ عندما قرئت عليك الوصية يوم سيامتك راهباً: "يا أبنائي إن تقدمت لخدمة الله فهيا نفسك للتجارب" (سيراخ ٧ : ٨) واحمل صليبك بشكر "لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا، بل مجرب في كل شيء مثلنا، بلا خطية. فلنقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه" (عب ٤ : ١٥، ١٦)

عندما تشعر أنك قد أصبحت غير قادر على احتمال الآخرين، تذكر أنه بالرغم من الاختلاف الكبير بين حربك وحروب الآخرين ولكن لكل منا حربه الخاصة. اطلبوا أن تتحلوا بالرحمة "إِحْمَلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ وَهَكَذَا تَمَّمُوا نَامُوسَ الْمَسِيحِ" (غل ٦ : ٢). قال القديس اسحق السرياني: "أنه على قدر اتضاعك، تُعطى صبراً على بلاياك؛ وعلى قدر تعزيتك، تزيد محبتك لله؛ وعلى قدر محبتك، يعظم فرحك في الروح القدس."

عندما تشعر أنك قد تدين أو تحكم على أخوانك/أخواتك بدلاً من منحهم المحبة والتعزية، تذكر كلمات القديس مكسيموس المعترف: "مكر شيطان الكبرياء يأخذ شكلاً من اثنين: إما أن يقع الراهب أن ينسب إنجازاته لنفسه وليس لله المعطي كل صلاح، والمعين في كل نجاح؛ أو إن فشل في ذلك يسعى في جعله يقلل من شأن اخوته اللذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه."

جدد إنسانك الداخلي وصل إلى الله بكل قلبك وعقلك، إذا كنت قد بدأت تشعر أنك قد بلغت الكمال في إنشادك لتسبحة نصف الليل فتذكر أنك في ذلك الوقت المبارك تسبح الخالق مع طغمة الملائكة (القديس باسيليوس الكبير). نحن نقول كل يوم في أرباع الناقوس: "السلام للكنيسة بيت الملائكة" ومع ذلك فأحياناً تصرفاتنا ومشاعرنا الداخلية لا تعكس الإحساس بتواجدنا في هذا المكان المقدس.

إذا وجدت أن عقلك مشتت، فاسأل نفسك هل ما تشغل به أكثر أهمية من تقديم ذبيحة الصلاة لله.

في هذا اليوم الجديد، ودوماً، أصلي لأجلكم يا أحبائي أن تأخذوا حذرکم لئلا تنحرفوا رويداً رويداً عن هدف دعوتكم. تذكروا الأيام الأولى، أحبوا بعضكم بعضاً، وجددوا عهد رهبانيتكم مع الله كل يوم - لأنه لا فضيلة كاملة بلا تعب (المؤتمرات - الأب سيرينوس).

أتمنى لكم عاماً جديداً مباركاً. ليكن إله السلام مع جميعكم.